استعادة الذات وتحرير الذاكرة في رواية الاعتقال العربية (رواية الساحة الشرفية لعبد القادر الشاوي ورواية يا صاحبي السجن لأيمن العتوم نموذجين .)

Reclaiming the Self and Liberating Memory in the Arab Detention Novel (Abdelkader Chaoui's A-saha Acharkia and Ayman al-Atoum's "Ya Sahibay Assijne) as a model

كريمة بخاري [1*]

[1] جامعة محمّد الصديق بن يحي . جيجل (الجزائر)

الملخص:

ترنو هذه المقالة إلى تتبع خطاب الذاكرة و تجربة الاعتقال السياسي؛ التجربة التي لها امتداداتها ونتائجها في تاريخ الوطن العربي عموما،تلك الكتابات التي تظهر فيها صور الجلاد والمخافر والمحاكمات والتحقيقات والاعتقالات وتبعاتها النفسية والاجتماعية.والهدف من تتبع خطاب الذاكرة في كتابات المعتقلين السياسيين العرب هو من أجل الكشف عن البنيات الاستبدادية التي تحول دون تحرير الإنسان العربي، من خلال استرداد حق القول والكلام للكشف عن الحقيقة الذاتية وبالتالي التحرر من الاستلاب الذي تمارسه عليه بنى الاستبداد الراسخة سياسيا وثقافيا واجتماعيا ودينيا وللعمل على تفكيكها وهدمها وصولا إلى تغييرها.

الكلمات المفتاحية: رواية الاعتقال ، الذاكرة ، خطاب ؛ المثقف ، الرواية.

Abstract This article aims to trace the discourse of memory and the experience of political detention; the experience that has its extensions and consequences in the history of the Arab world in general, those writings in which the images of the executioner, police stations, trials, investigations, arrests and their psychological and social consequences appear. The aim of tracing the discourse of memory in the writings of Arab political detainees is In order to reveal the tyrannical structures that prevent the liberation of the Arab human being, by recovering the right of speech to reveal the subjective truth and thus liberation from the tyranny practiced upon him by the established tyrannical structures politically, culturally, socially and religiously and to work on dismantling and demolishing them in order to change them

Keywords: Detention narrative , memory , discourse , intellectual, novel.

* كريمة بخاري.

مقدّمة

أرخت الرواية للعديد من المحطات التاريخية المهمة في تاريخ الشعوب والبلدان، فأصبحت ديوان العرب بعد أن كان الشعر ديوانهم، فأخذت أحقية التدوين والتأريخ وتقييد الكثير من المحطات المهمة في تاريخنا السياسي والثقافي والاجتماعي. ومن أهم تلك التجارب تجربة الاعتقال وتبعاتها النفسية والعقلية والهوياتية. وبالتالي كان لابد من الوقوف عند رواية الاعتقال العربية للبحث في قضية احتفاء الرواية بالذاكرة والعودة إليها، والنهل من مناهلها ومصادرها وسردياتها التي خلدت العديد من المواقف والأحداث.

تأتي الكتابة عن تجربة الاعتقال السياسي بوصفها "ضرورة وجودية تؤسس بها الذات كينونتها للاندماج والتأقلم وكقيمة مضافة للحقل السياسي والثقافي والوطني عموما، سيظل بحاجة لقراءات متعددة كفيلة بإظهار تجليات علاقة هذا المتخيل وارتباطه بالذاكرة الجماعية –للمغاربة وللعرب عموما–من أجل تمثل واضح للمصالحة والشهادة والاعتراف...وكذا ربط جسور التوافق والتواصل مع التاريخ الرسمي حتى لا تبقى القطائع قائمة..."؛ (خفيفي، 2014، صفحة 9) فالكتابة عن هذه الفترة هي بمثابة المفتاح للدخول في سياسة المصالحة والتصالح مع السلطة ولكن تحت شعار (حتى لا ننسى).

كما تعد الكتابة"مساهمة في بناء الذاكرة الجماعية المشتركة، كمقوم من مقومات الأمة الذي يجب أن تتضافر الجهود لملء كل البياضات الشاغرة فيها، ولعل مساهمة الكتاب المعتقلين سواء ممثلوا اليسار الجذري أو العسكريين – في المغرب تحديدا– تمثل قيمة مطلقة في مسار دعم هذا البناء ليكون دعامة قوية لتعزيز الممارسة الديمقراطية وترسيخ دولة الحق والقانون" (خفيفي، 2014، صفحة 10)

1. خطاب الذاكرة وتجربة الاعتقال السياسي (شعار لا مصالحة بدون مصارحة):

ترتبط الكتابة عن تجربة الاعتقال السياسي بسنوات الرصاص أو الجمر، هي تجربة لها امتداداتها ونتائجها في تاريخ الوطن العربي عموما، تلك الكتابات التي تظهر فيها صور الجلاد والمخافر والمحاكمات والتحقيقات والاعتقالات وتبعاتها النفسية و الاجتماعية. والهدف من تتبع خطاب الذاكرة في كتابات المعتقلين السياسيين العرب هو من أجل الكشف عن البنيات الاستبدادية التي تحول دون تحرير الإنسان العربي، من خلال استرداد حق القول والكلام للكشف عن الحقيقة الذاتية وبالتالي التحرر من الاستلاب الذي تمارسه عليه بنى الاستبداد الراسخة سياسيا وثقافيا واجتماعيا ودينيا وللعمل على تفكيكها وهدمها وصولا إلى تغييرها.

نلاحظ على هذه الكتابات أنها تقدم – في الغالب– على شاكلة الشهادة الصادقة على فترة عصيبة من التاريخ العربي، المرتبط بالقمع والسجن والاعتقال، وقد اخترنا للتمثيل على تواجد خطاب الذاكرة في محكي الاعتقال السياسي رواية "الساحة الشرفية "لعبد القادر الشاوي ، ورواية"يا صاحبي السجن"لأيمن العتوم.

1.1. الساحة الشرفية ذاكرة الراوي والشخصيات:

قدم الروائي المناضل السياسي عبد القادر الشاوي صورة عن زمن القمع السياسي وتبعاته من خلال نصه الروائي المعنون بـ"الساحة الشرفية" حيث يقترح تجربة الاعتقال التي عايشها بوصفه مناضلا سياسيا مع عدد من أصحابه المناضلين كل باسمه. لنجد أنفسنا أمام نص روائي يجمع بين السيرة وبين تجربة روائية تخييلية جمالية، يؤرخ فيها صاحبها لمرحلة تاريخية مهمة من التاريخ العربي.

يقترح الروائي **ذاكرة للألم** مرتبطة بالمكان المعادي /سجن الساحة الشرفية، ويبقى "السجن في نهاية الأمر هو موت على قيد الحياة، لأنه يجعلك في عالم مغلق من طبيعته أنه يحرك في الدخيلة ميكانيزمات الاستعادة والنوستالجيا...الوقت في السجن بطيء ومعذب يساهم في إحداث الألم، ويمنعك من ممارسة الحرية الطبيعية، وهو بقدر ما يمر بقدر ما يؤلم...السجن يوقف الحياة رمزيا ويصبح المستقبل معادلا للموت" (الشاوي، حوار، 2002، صفحة 6).حيث يقدم الاعتقال كتجربة"الانتقال إلى نمط حياة إجبارية وكانقطاع عن زمن العالم الخارجي يضع المعتقل في مواجهة مباشرة مع خصم عنيد لا تبدو العلاقة معه قابلة للفهم والعقلنة، لأنه ببساطة يعاش كتجربة موزعة بين انفعالات يسودها القلق والتوتر والمعاناة، وبين لحظات تتجرد فيها الزمنية من كل معانيها المألوفة، وتفقد قياساتها كوحدات دالة على فترة زمنية معينة، فيصبح الأمس واليوم والغد مفاهيم غير واضحة وملتبسة في المعنى الذي تشير إليه عند الآخرين"، (خفيفي، 2014، صفحة 36) فالحالة النفسية التي يعيشها المعتقل تجعل الثوابت والمفاهيم العادية والمعروفة ملتبسة عليه ومختلفة عمَّا كانت عليه قبل دخوله للسجن، إذ يمس التغيير كل شئ يحيط به.

2.1. خطاب الذاكرة ومنطق الشهادة في رواية "الساحة الشرفية":

إن المتتبع لروايات الاعتقال السياسي خاصة، وكتابات الاعتقال عامة، يقف على ملاحظة مهمة نتابع من خلالها شهادات حية لأصحابها الذين أبوا إلا أن يفضحوا المستور ويبوحوا بالمسكوت عنه في التاريخ السياسي للمجتمع العربي، فهي إذا تجارب واقعية موضوعية عكست مرحلة تاريخية من مراحل المناضلين السياسيين الذين اكتووا بنار التعذيب والقمع، ولكن مع رواية "**الساحة الشرفية**" يفاتحنا عبد القادر الشاوي في مقدمة الرواية قائلا:"يعلن سعد الأبرامي الذي يحكي وقائع هذه الرواية، أن أحداثها ومشاهدها وحكاياها وشخوصها وأسماء شخوصها من ابتداع الخيال وحده"

(الشاوي، الساحة الشرفية، 2006) ،وهو كما يشير الناقد عبد الرحيم العلام "قولة إيهامية ومفارقة في الآن ذاته،فالخيال المتحدث عنه هنا قد يخص الصوغ اللغوي والأسماء وحدها ، لأن رواية"**الساحة الشرفية**"سرعان ما تأخذنا دون وعي أو إدراك منا، فتلقي بنا داخل عوالمها الواقعية /المرجعية فتوقعنا بذلك في ارتباك على مستوى القراءة والتلقي قد يصعب أحيانا فك علائقه وحدوده أمام هذه القدرة على التحويل والتخييل التي يستثمرها الكاتب في بناء هذه الرواية" (العلام، 2001، صفحة 268)

فعبر الاشتغال على الذاكرة وتحويل المعيش إلى عالم متخيل فيه الكثير من الإيهام، يسابقنا عبد القادر الشاوي في نصه هذا نحو الخروج بنتيجة هل نحن أمام شهادة واقعية أم أمام عمل متخيل؟؛ إننا بالطبع أمام عمل متخيل يتكئ على عالم الواقع والموضوعية، وعلى تجربة معيشة عكستها الأحداث وأسماء الأماكن المبثوثة في ثنايا الرواية، فالسير الغيرية التي قدمها الراوي سعد الأبرامي تؤرخ لسير مناضلين سياسيين في المغرب أو حتى في الوطن العربي عموما، وتشتغل على اختلاف ردود فعلهم تجاه تجربة السجن والاعتقال السياسي الذي منعت فيه الذات من الوجود الطبيعي، ووجدت نفسها أمام وجود من نوع آخر يرتبط بالعدم واللاجدوى على حد تعبير عبد الرحيم العلام؛ ذلك أن من حكايا سعد عن أصدقائه في سجن الساحة الشرفية تلك التي تؤسس لفعل اللاوجود وعدم القدرة على استيعاب رحلة القمع والتعذيب الممارس عليهم، حتى وإن لم تشر الرواية إلى نوع أدبي آخر تنتمي إليه كـ"التخييل الذاتي والسيرة الذاتية"إلا أن فيها ما يوسع من خاصيات الشهادة والبوح بالنسبة للكاتب بحكم أن هناك وقائع تاريخية حصلت فعلا تجعل السرد مقيدا بها؛ من ذلك ما ذكره عبد القادر الشاوي على لسان السارد سعد الأبرامي من حوادث وتواريخ.

فعلى ضوء أحداث 1984وما شهدته من احتجاجات بسبب الزيادات المتوالية في الأسعار، وما عرفته المدن المغربية من انتفاضات شعبية منددة بالوضع الاجتماعي الذي لم يعد يطاق أو يحتمل، تحركت الآلة القمعية للبحث عن نشطاء الأمس، في هذا السياق يأتي هذا الاعتقال الذي يرمي بصاحبه وثلة آخرين من المناضلين، يستأنس بهم ويستأنسون به في انتظار الخروج الذي لطالما انتظروه لسنوات عجاف.

لتبقى تجربة الاعتقال تجربة من نوع آخر على علاتها ونقائصها وعذاباتها وتحولاتها التي تعاني منها الذات المعتقلة، حيث تتشكل علاقات من نوع آخر بحكم الانتماء لمنظمة واحدة، ليكون المعتقلون مجتمعا يرتبط بقوانين بل بحكومة من نوع ما لها وزاراتها المختلفة؛ تلك التي تكلم عنها سعد الأبرامي واصفا حياة السجن (لما يتكلم عن المتخصصين بالثياب والأكل...)، حيث تتجرد الذات المعتقلة /المناضل السياسي من عاداته اليومية ليكتسب عادات جديدة.

حين تتحول **الذاكرة هي المنجاة؛** يذكر الكاتب علي برعيش التازي أن كتابات المعتقلين السياسيين تعتبر سلاحا ضد **آلية النسيان** التي أرادتها السلطة أن تترسخ؛ "فكتابات المعتقلين لا تنجز بهدف تحقيق مجد شخصي، ولكن بهدف أداء واجب أخلاقي تجاه أولئك الذين مروا من نفس التجربة، دون أن يستطيعوا التعبير عنها لسبب من الأسباب. (التازي، د.ت.ن)

يعد نص"الساحة الشرقية" وقبله نصوص أخرى للكاتب عبد القادر الشاوي بمثابة الترس الواقية أمام آفة النسيان،إنه تذكير بألوان العذابات والآلام التي تعرض لها المعتقلون السياسيون المغاربة دفاعا عن الفكرة العظيمة التي آمنوا بها، "ألا تتحول نصوصه السردية كلها إلى ما يشبه الصرخة المدوية لفضح زمن الرعب والزنازين، الذي جثم ليله على مغرب السبعينات والثمانينيات؟...إن أدب هذا الكاتب المغربي هو بحق صوت من لا صوت لهم. إنه صوت أولئك الذين ماتوا خلسة حتى لا تدرس ذكراهم، بل تبقى حاضرة معنا رغم كل محاولات الطمس الممنهجة التي تتعرض لها ذاكرتنا الجماعية كل يوم وبشتى الأساليب بشكل ممنهج ومستفز"، (التازي، د.ت.ن). إننا أمام نص وإن ادعى الروائي أنه تخييلي بامتياز في بداية الرواية، إلا أننا نجد أنفسنا نتابع نصا من قبيل الشهادة بامتياز، حتى وإن كانت الشخصيات رمزية، فهي صورة الشهادة الحية والمتكاملة ضد من حول الإنسان المغربي والعربي إلى مسخ مشوه ومعذب، مسخ مطارد بالكوابيس والخوف، وتكشف الشهادة في الآن نفسه عن عظمة الإنسان أيضا.

إن نص عبد القادر الشاوي "الساحة الشرقية"، يقع في مساحة الذاكرة المضادة لتلك الذاكرة التي تحاول الدولة/السلطة أن تشيعها بين أفراد مجتمعها على مدى الأزمان" فقد ساهم – الكاتب مع غيره من الروائيين المغاربة- في كشف النقاب عن أشياء كانت إلى وقت قريب من الطابوهات: فعرَّفوا بالانتهاكات الجسيمة التي شهدتها مرحلة هامة من تاريخ المغرب، وحولوا بعض المعتقلات من سجون سرية، وقبور لكائنات حية مهملة ومغضوب عليها منسية، إلى مآثر زاحمت في الشهرة أشهر المسارح العالمية والمآثر الإنسانية، ومن أهم السجون التي نالت حيزا هاما في الكتابة الروائية المغربية يكفي ذكر (السجن المركزي بالقنيطرة /سجن العلو بالرباط /درب مولاي الشريف بالدار البيضاء السجن المركزي بآسفي إضافة إلى سجن تازمامارت الشهير بالراشدية..." (الداديسي، 2012)وهذه في رأينا من أهم الأهداف التي أراد المعتقل السياسي تحقيقها عبر الكتابة الإبداعية أو الكتابة الذاتية.

3.1.التعذيب ومنطق الجلاد في تركيع المعتقل:

إن الرواية التي تشتغل على محكي تجربة الاعتقال إنما هي تلك الرواية التي تؤصل تفعيل الحكي الجريح كما سماه الباحث المغربي "مُحَمَّد خفيفي" في كتابه الذي يحمل ذات العنوان؛ حكي جريح يؤرخ ببساطة لزمن الأزمة وزمن التعذيب

الذي تعرض له المعتقل السياسي بأنواعه المختلفة تلك المعروفة وغير المعروفة، وهذا ما حاوله الروائي عبد القادر الشاوي في نصه"**الساحة الشرفية**"حيث يريد بكل بساطة أن يفعل **دور الذاكرة الفردية وحتى تلك الجماعية** في توثيق تجربة التعذيب التي نالت من أصدقائه المناضلين في معتقل درب مولاي الشريف ثم في عتبات وغرف سجن "الساحة الشرفية "كما أسماه ويا له من اسم لا يليق بالمكان الذي أسس لمنطق اللاشرف ومحاولة الحراس للقضاء على أية ذرة شرف عند هؤلاء المعتقلين الخائنين حسب وجهة نظرهم؛ "...كانوا يريدون لنا الألم قبل الهزيمة، وكنا نحن نريد لأنفسنا الانتصار قبل الموت، شيء طبيعي تماما". (الشاوي، الساحة الشرفية، 2006، صفحة 180) ومن أجل تفعيل هذا الألم فقد اختار الحراس أنواعا شتى من التعذيب ؛ ذالك التعذيب الجهنمي الذي فاجأ عبد العزيز صابر عند دخوله أبواب السجن، وقبله معتقل درب مولاي الشريف يقول: "لأنني كنت أتصور أن البوليس لا يملك شيئا كثيرا عني، وسيقتصر الأمر على تحقيق سريع قد ينتهي بإطلاق السراح..." (الشاوي، الساحة الشرفية، 2006، صفحة 184)، فالهدف من التعذيب حسب فوكو" إخضاع وتركيع المعتقل وكسر مقاومته من أجل نيل اعترافه أولا، وإثبات سطوة وجبروت السلطة وقدرتها على ترك بصماتها على جسد المعتقل ثانيا، وبطبيعة الحال فإن هذه التقنية التي تفننت السلطة في تدبير آلياتها العلنية والسرية محكومة بطقوس لها امتداد في التاريخ الإنساني..." (خفيفي، 2014، صفحة 48) ، تتعلق أساسا بأنواع التعذيب التي يستعملها الجلاد على الضحية.

كما أن ردود فعل الحراس على ما ذكره السارد سعد الأبرامي من إضراب "**حركة الجهاد الإسلامي**"تثبت نوعية آليات التعذيب المعتمدة من قبل إدارة السجن حيث وبدون إنذار"أمر المدير بإلقاء الغاز المسيل للدموع عليهم، فتفرقوا في جنبات السجن، هجم الحراس عليهم بالهراوات بطريقة متقنة لعلهم تدربوا عليها، بدأ الضرب والإخوان يهربون إلى زنازنهم، أصيب منهم بجروح عدد..." (خفيفي، 2014، صفحة 207)

ولم يخف السارد ومن ورائه كاتب النص عبد القادر الشاوي التأكيد على تبعات هذا التعذيب الجهنمي والقاسي الذي تعرض له المناضلون في تلك السنوات، وفي ذلك المكان الذي كثيرا ما يوصف بأبشع الصفات؛ لأن تبعاته ونتائجه لاحقت المعتقل داخل أقبية السجن وخارجها ليتساوى الداخل والخارج على حد سواء، فيؤكد سعد الأبرامي في قرارة نفسه موجها الخطاب للحبيبة نفزة: "أنت لا تعرفين حدود التخريب الذي في النفس والتصدع الذي في الجسد والفراغ الذي في الروح واليباس الذي في مرقد الشهوات الباطنية العميقة الأولى" (خفيفي، 2014، صفحة 223)، وإن كان سعدا لخص مجمل تبعات التعذيب في كل مستويات فصول حياة المعتقل كجسد أو كروح أو كشهوات فقدت إلى غير رجعة . ويؤكد إدريس العمراوي لسعد الأبرامي ما قلناه سابقا:" مهما حاول الكثيرون منا إخفاء التشوهات التي تطل

من تحت جلودهم، فإنهم في الواقع موشومون بجراح التجربة العميقة التي مروا أو لم يمرون بها... " (خفيفي، 2014، صفحة 218)

أما عبد العزيز صابر فرغم انتهاء الإضراب عن الطعام الذي دخل فيه المعتقلون إلا أنه لازال يعيش الحالة فيصفه السارد بكثير من الدقة الدرامية: "كان يحضن ركبته إلى صدره، ولعله كان يجد الراحة الأبدية في انطفاء نفسه وعفاف لسانه، هل كان يستطيع أن يأتي بشيء آخر ونحن أنفسنا جميعا على ما كنا عليه من نهايات أقرب ما تكون إلى الموت،لم أكن أكلمه ولم يكن يحس بالأثر من حوله، ولو كان همسا كان في كمال الانغلاق وربما في سديم التلاشي..." (خفيفي، 2014، صفحة 181)

4.1.آليات تحدي مرارة الاعتقال والتعذيب:

رغم ما يحدث في زوايا سجن "الساحة الشرفية" حيث يقبع سعد الأبرامي ومن معه، إلا أن السلطة لم تستطع أن تنجح في تحقيق مبتغياتها وأهدافها المعلنة والخفية، فقد حاول كل سجين أن يجد لنفسه وسيلة لتحدي الحراس وتحدي شراستهم التي تدربوا عليها وأصبحت لصيقة بطباعهم الحادة والشرسة ؛ فهذا مصطفى درويش الذي قرر أن لا يضيع الاحتفال بعيده الخامس والثلاثين حتى وإن كان في أقذر مكان عرفه، ومن معه من المناضلين لخير إثبات على آليات التحدي التي كانت في يد هؤلاء؛ حيث جهَّز زنزانة لاستقبال الاحتفال الخاص وجهَّز معها كل ما يقتضيه الاحتفال من دعوة للأصدقاء، وتحضير حلواه المفضلة التي زينتها فتحية بالشموع "وجيء بشراب الجين في قناني الماء المعدني حتى لا يكتشف أمرها الحراس في المزار، أواني من البلاستيك الأبيض مصفوفة على حافة المصطبة..." (خفيفي، 2014، صفحة 142)، أرادها أن تكون ليلة ليست ككل الليالي السابقة ولن يتركها مصطفى الدرويش تمر عليه في السجن"كباقي أيام البؤس الأخرى وخاصة حين يكون هذا البؤس غوصا في الاستذكار وقلبا لحقائق التجليات" (خفيفي، 2014، الصفحات 144-145).

لم يستسلم السجناء إذا للقمع والتعذيب الممارسين، بل كل ومساره الذي اختاره ليقضي أياما بل سنوات الوحدة والخوف والاكتئاب؛ فمنهم من ألف جوقا موسيقيا كحال مصطفى الدرويش للغناء الأندلسي وكان يحي كل الاحتفالات التي تجري في أقبية سجن الساحة الشرفية، ومنهم من أسقط همه على الكتاب فجعله خير جليسه في ليالي البرد والخوف والعزلة وتذكر حياة ما قبل السجن، كما ذكر عبد العزيز صابر "هناك ميكانيزمات تفرض على المعتقل حدا أدنى من الحفاظ على ذاته وأحاسيسه، والمسألة مع ذلك ليست مسألة تكيف بل قدرة واعية على تجاوز الأمر الواقع" (خفيفي، 2014، صفحة 186) ولكن عبد العزيز صابر وإن استطاع مقاومة السجن وهو داخل أقبيته إلا أنه فشل في المواجهة

والتحدي خارج السجن وذلك بأن أنهى حياته بالانتحار المفاجئ، أما السارد سعد الابرامي فقد لخص جهود الحراس وأهدافهم فيما يلي:"كانوا يريدون لنا الألم قبل الهزيمة، وكنا نحن نريد لأنفسنا الانتصار قبل الموت" (خفيفي، 2014، صفحة 180)، والإضراب الذي كان وسيلة للمسجونين للدفاع عن حقوقهم ومطالبة آمر السجن بتحقيقها، وهذا لا يعني مطلقا أنهم – السجناء–كانوا كل الوقت ذواتا من حديد، إنسان بلا قلب ولا إحساس بل مروا بالكثير من لحظات الضعف واليأس بل القنوط أحيانا كثيرة، تمنوا معها الخروج من ذلك المكان البائس والكئيب الذي قضى على أحلامهم وآمالهم في مستقبل مشرق لهم ولأهاليهم.

2. ذاكرة الاعتقال السياسي في رواية"يا صاحبي السجن"لأيمن العتوم :

يصادفنا ونحن على أعتاب قراءة رواية: يا صاحبي السجن؛ تمفصلا مهما يرتبط بعتبة العنوان الذي يحمل في طياته خلفية استقى الكاتب الأردني أيمن العتوم منها نصه أو التقى معها في ثنايا وتفصيلات كثيرة، يتعلق الأمر هنا بقصة سيدنا يوسف عليه السلام، وتحديدا قصته مع صاحبي السجن وتفسيره لأحلامهما، ولكن الأهم من ذلك هو وقوفنا على كتابة يقرُّ صاحبها بأنها حقيقية؛ تعكس تجربة ذاتية عاشها البطل/الكاتب فحاول أن ينقلها للقارئ العربي في شكل نص روائي وليس في شكل نص اعترافي على أساس أنه (اعترافات – يوميات – مذكرات)وهذه أنواع توحي جميعها بصدق التجربة وبواقعيتها، وهنا يطرح سؤال مهم جدا:لماذا اختار الكاتب نقل تجربته السجنية الذاتية على هيئة رواية وليس على هيئة نوع آخر؟.

ربما الإجابة على هذا السؤال لا تهمنا كثيرا هنا، ولكن الواضح هو أهمية الكتابة التخييلية حتى وإن اتكأت على تجربة معيشة حقيقية، يكون فيها الهروب من السلطة سهلا وسريعا ومتاحا بالتخفي وراء أسماء مستعارة، أو حيوات مستعارة لأشخاص آخرين غير شخصية الكاتب، أو التخفي وراء تجنيس رواية،وهذا أمر شائع بين الكتاب، إضافة إلى أهمية استغلال التخييل لنقل تجربة حقيقية خاصة وأننا نرى الكاتب يستثمر ذكرياته حول الموضوع وحول حياته في تلك الفترة، كما هو معلوم أننا ننسى ونفتقد لبعض ذكرياتنا كما أننا نصاب بأمراض تصيب الذاكرة فتحيلها على تقاعد مبكر جدا ،وبهذا يكون استغلال ما في التخييل لتجاوز هذه الهفوات والذكريات المنسية في زمن نحتاج كلنا إلى تدوين ذكرياتنا، وجعل ماضينا في نصوص مكتوبة لحفظها من الزوال والنسيان، ويتأكد ذلك من خلال اسم البطل(أيمن) الذي يدخل السجن بتهمة لا تخصه وهو اسم الكاتب نفسه.

ولأن الذكريات كما يقر بذلك الكاتب أيمن العتوم على لسان البطل (أيمن) "استعادة للإنسانية حين تغيب في ممر السنين اللولبي، خرجت من ذاتي العميقة لأروي لكم فصلا من حياتي بعد غياب طوعي طويل..." (العتوم، 2013،

صفحة 6)، خاصة وأن الذكرى تتيح فرصة للاطلالة على الفجائع والخيبات التي سكنت الذات واستقرت فيها؛ فالذكريات تبقى"رصاصة طائشة؛قد تقتلك وأنت غير مستعد لبقعة دم كبيرة تحيط بك ملقى على فراش الحنين..وقد لا تحدث ضجيجا يمر قريبا من أذن تتشهى سماع أخبار توهم نفسها بأنها سارة وهي ليست كذلك أبدا..." (العتوم، 2013، صفحة 7)

تتواصل على لسان السارد الكثير من الأسئلة والاستفهامات التي يحاول من خلالها فهم الوضع العام، ليجد نفسه أمام سلطة الذاكرة،تلك التي تستفز صاحبها وتبيح له القول في ماضيه بلا نسيان،لندرك معها قوة الذاكرة التي يقبع الكاتب تحت سلطتها؛ "يا لها من ذاكرة تلك التي تتحمل كل الطعنات القديمة وتستوعب كل هذا الزيف وتحتفظ بالتفاصيل" (العتوم، 2013، صفحة 11)، وقليل ممن دخل السجون لأسباب سياسية ظل يحتفظ بذاكرته وبماضيه حول تلك الفترة التي قضاها ضمن هوية جديدة اكتسبها كسجين سياسي والأمر نفسه ينطبق على السجين العادي.

وفي لحظاته الأخيرة بين جدران السجن يصل إلى مجموعة من التخمينات هي في الأصل نتاج خبرته في ذلك المكان وبين شخصيات؛ "يستحيل أن تعثر عليها ولو خرجت من السجن مسافة خمسين مترا،..لا تتشكل إلا حين تطعنها سكين الوحدة والأمل والترقب والخوف والرجاء والحزن والفرح والشك واليقين والعبودية والحرية... (العتوم، 2013، صفحة 336)، لا تدري الشخصيات والسارد (أيمن) واحد منها ماذا فعل السجن بها" أي يد نحات تمتد إلى الطين المتراكم في أجسادنا فتعيد تشكيلها من جديد؟" (العتوم، 2013، صفحة 337)؛ فللسجن القدرة الكاملة على تغيير طبائع البشر ونفسيتهم، بل بإمكانه أن يقضي على إنسانيتهم ويحولهم إلى أجساد بلا روح نتيجة الألم والخوف والقمع الممارس عليهم من قبل القائمين على السجون.

ليقترح علينا صورة شاعرية ملؤها معجما خاصا لا يمت للوضع الراهن بصلة فكلها ألفاظ رومانسية؛ إذ يقول عن الزنازين إنها" أوطان المعتقلين وملاجئهم الاضطرارية وحقول قمحهم، عندما تستقبلك زنزانة ما فإنها تمد لك ذراعيها بداهة وهي تقول: إما أن تحبني أو تكرهني ، الحب والكره قضية شخصية ولكن عليك أن تعتاد التعايش معي ...الزنزانة أنثى إذا عاندتها عاندتك وإذا توددت إليها توددت إليك...الفرق بينهما أن الزنزانة لا تتكلم وحين تغيب في جوفها تتمنى أنها تتكلم ويقتلك صمتها...عجبا أليس من طبيعة الأنثى أن تفيض كلاما!!!" (العتوم، 2013، صفحة 34) ، قليل هم الذين شبهوا السجن بالأنثى تحتويك ظالما ومظلوما تعاندك أو تتودد إليك، ولكنه لا يشبهها في كثرة كلامها ؛ففي السجن تعيش الوحدة والصمت بكثير من تفاصيله ودقائق أموره، الصمت الذي يجرك إلى ماضيك محاولا أن تجد الراحة والألفة والأمان الذين فقدتهم جميعا فيه وداخله.

3. خطاب المثقف /خطاب السلطة:

يقترح الكتاب العرب في نصوص كثيرة وضعا مأساويا في السجون العربية لا على وجه التحديد والتعيين، بل يتركونها مجهولة لا نعرف لها اسما أو مكانا، بينما يكشف ويفضح ويبوح الكاتب الأردني أيمن العتوم بالمكان حيث يكون سجنه في دولة الأردن "..تعودت الدولة على شعراء السلاطين وقلما ينهض في الأردن شاعر يخرج عن هذه الدائرة ولأنني رسمت لنفسي دائرتي الخاصة البعيدة عن الزعيق والتطبيل والترميز كنت عرضة لسهامهم وكنت هدفا سهلا لبنادق صيدهم- ربما- وأنا أغرد خارج السرب..." (العتوم، 2013، صفحة 9)؛ إننا أمام مثقف ثائر يحمل خطابا مضادا لخطاب السلطة، لا يغرد مع السرب وإنما خارجه؛ **يفضح المكشوف،ويبوح بالمستور**، ويحيل القارئ على حقائق يسكت عنها أحباب السلطة وأعوانها، فتتشكل أمامنا صورة أخرى للطغيان مجسدة في العنف الفكري الموجه نحو إسكات الأفواه الثائرة بالتهديد والوعيد لتصل إلى العنف الجسدي الذي لا يبارح المثقف فيه السجن يسكنه ويلتحف بجدرانه، ويكتوي بعذاباته، وجراحاته التي لا تندمل مع غياب الأسرة والأحبة، ويتواصل هذا الوضع حتى خارج أسوار السجن.

إذ تعد الكتابة عن الاعتقال السياسي"تأشيرة نحو الحرية والتحرر، بما ينحاز الكاتب المعتقل إلى تطهير ذاته والتنفيس عن آلامه بتشييد العوالم المليئة بتعدد اللغات والأصوات والمحكيات...ليعيد الحياة لزمن انقضى واقعه، لكنه لا زال رابضا بمخلفاته وآثاره على الذاكرة والجسد معا-ذلك- أن التجسيد الفعلي لممارسة الكتابة عبر الانخراط فيها يشكل لحظة استعادية تعيد فيها الذات اجترار مرارة الاعتقال وتبعاته" (خفيفي، 2014، الصفحات 10-11)

يقدم الكاتب منطقا من نوع لا نعرفه عن الحرية ؛ وينطلق من المقولة المشهورة التي صرخ بها عمر ابن الخطاب في وجه ابن العاص؛ "يولد الناس أحرارا"ولكن هذه الحقيقة البديهية شوهتها يد السلطة بأن حولت بعضنا إلى أحرار، وهم من يقرعون الطبول لها، ويضخمون الحقائق، ويسعون وراء رضاها؛ "وقد تواطأ الناس عبر العصور على ذلك، فعاشوا أرقاء حين نكسوا رؤوسهم أمام السيف والنطع، وحين تستنهض غريزة الحرية في أعماقهم يصمتون ويخفضون أبصارهم ..." (العتوم، 2013، صفحة 36)

أما من يقول كلمة (لا) في وجهها (أي السلطة)، ويسعى إلى فضح أساليبها فهو في قائمة المغضوب عليهم الضالين العابثين باستقرار الدول وسيادتها،وبطلنا (أيمن) من هؤلاء الذين فضحوا السلطة حين قال شعرا ففضح أساليبها ودهائها في استغلال الشعوب والتكالب على حقوقهم المهضومة هضما قاسيا،"ماذا فعلت في شعري غير أنني رفعت صوتي عاليا بـ(لا) للصلح والتطبيع مع اليهود؟؟ هل من المعقول أنهم كانوا ينتظرون مني أن أمدح المفاوضات وأصطف إلى جانب المستسلمين؟!!!" (العتوم، 2013، صفحة 50)، ينقلنا السارد هنا وهو يستعيد **ذكرياته الخاصة الفردية** إلى

ذكريات جماعية ترتبط أساسا بقضية فلسطين المحتلة، ومفاوضات التطبيع التي رفضها هو وكثير من الفئة العربية المؤمنة بأحقية دولة فلسطين في الاستقلال، واستعادة سيادتها على معظم مناطقها من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب،لنؤكد التعالق الحاصل بين الذاكرتين الفردية والجماعية في واقع الأمر.

وتروم الكتابة عن السجن هنا كشف حقيقة ما جرى في المعتقلات من تجاوزات تؤرخ للحظة عنف الدولة المسلط على المعارضين، لذلك لا يمكن تغييب الخلفية السياسية الكامنة وراء هذه الإبداعات، فمن خلالها يمكن فهم طبيعة المواقف والأدوار التي تجعل هذه المرافعات صرخات إدانة في وجه النظام السياسي المسؤول عن هذه الانتهاكات قبل الانخراط في مسلسل المصالحة وتدعيمه من أجل أن لا يتكرر الذي حدث ". (خفيفي، 2014، صفحة 10)

ولكنه رغم هذا يقر إنه – في السجن– لا زال يعيش حرا "إني حر بالمعنى الحقيقي رغم هذه القضبان؛ لأنني استطعت ألا أشتم نفسي حتى هذه اللحظة بخوضي مع الخائضين وانبطاحي مع المنبطحين...كم من الناس يتمنون أن يفعلوا ما فعلت، غير أن (نعم) حكمت عليهم بالعبودية المقيتة" (خفيفي، 2014، صفحة 37) ؛ فرغم ما حدث داخل السجن إلا أن السارد/البطل لم يفقد قيمة نفسه، ولم يعط للسلطة وأعوانها فرصة الفوز عليه التي لطالما سعت إلى تحقيقها؛ فأيمن لم يتحول إلى عبد بمجرد دخوله السجن بل بقي مصرا على رأيه، ورافضا لكثير من ممارسات الدولة ،مؤمنا بقدرة الفن/الشعر على تغيير الأوضاع وكشف المسكوت عنه في كثير من الدول والعوالم.

4 . الخاتمة:

من جملة ما نخرج به في نهاية هذه الدراسة هو أن الرواية العربية وإن اعتمدت على التاريخ كمادة موثقة للاشتغال على تفاصيله وأحداثه ووقائعه، إلا أنها احتكمت في النماذج الروائية المدروسة على منطق الشهادة والذكريات الخاصة على لسان السارد الشاهد حول التاريخ وتفاصيله،لتلتقي الذكريات الفردية بذكريات الجماعة التي عايشت الوضع التاريخي نفسه.كما لاحظنا إصرارا من لدن الروائيين – قيد الدراسة– على الاستعانة بشاهد عيان على الواقعة/الحادثة التاريخية؛ عايشها من قريب جدا، من أجل تأكيد واقعية الطرح أو على الأقل الإيهام بواقعيته، وكذلك لأهمية الشاهد في الذاكرة الشعبية العربية عموما، لأننا أمة تؤمن فقط بما تراه العين فعليا.

5. مراجع البحث:

1. الكبير الداديسي. (14 09, 2012). *الاعتقال السياسي من خلال رواية الساحة الشرقية*. تم الاسترداد من الحوار المتمدن: https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=324246
2. أيمن العتوم. (2013). *يا صاحبي السجن*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
3. عبد الرحيم العلام. (2001). *الفوضى الممكنة، دراسات في السرد العربي الحديث*. الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع.
4. عبد القادر الشاوي. (2006). *الساحة الشرقية*. الدار البيضاء: منشورات الفنك.
5. عبد القادر الشاوي. (2002). حوار. *جريدة الجمهور* (95).
6. علي برعيش التازي. (د.ت.ن). *شعرية المحكي السجني في أدب عبد القادر الشاوي الروائي*. تم الاسترداد من منبر الجابري عابد: https://www.aljabriabed.net/n78_05beriach.(2).htm
7. محمد خفيفي. (2014). *الحكي الجريح،قراءات في أدب الاعتقال السياسي بالمغرب*. الرباط: منشورات التوحيدي.